

الشرح الموجب على من

القول القدر

للإمام المجدد

عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب

دروس لفضيلة الشيخ

محمد سعيد رشيدان

فرغه واعثنى به :

أبو إبراهيم هاشم رضوان بن محمد آل إسماعيل

مكتبات الإمام الأجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، وبعد ..
فإن من أنفع المصنّفات التي صنّفها شيخ الإسلام المجدّد محمد بن عبد الوهّاب
رحمه الله تعالى رسالته الموسومة بـ (القواعد الأربع) وقد اهتم أهل العلم بعده
بنشرها وشرحها لطلبة العلم ؛ لما اشتملت عليه من المسائل المهمّة في باب العقيدة .
وهذا شرح للشيخ الفاضل محمد بن سعيد رسلان حفظه الله تعالى ، وهو شرح
موجز ، سهل العبارة ، يّين فيه الشيخ أهمّ مسائل هذه الرسالة النّافعة .
وأصل هذا الشرح دُرُس من سلسلة دُرُوس الشيخ في العقيدة ، ألقاه الشيخ في
المسجد الشرقي في محافظة المنوفية بمصر ، وكان تاريخ إلقائه هو : الأحد ٢ من
ذي الحجة سنة ١٤٢٩ .

ولمّا كان الكتاب المقروء أوسع انتشاراً وأكثر فائدة من الشريط المسموع قُمتُ
بِعونٍ من الله بتفريغ هذا الشرح النّافع ، واتبعت في ذلك ما يأتي :
* قمتُ بتمييز متن القواعد الأربع عن الشرح بجعله بين قوسين (...) ، وبلون
أحمر مُغاير للشرح .

* قمتُ بعزو الآيات وتخريج الأحاديث الواردة ، سواء كانت في المتن أو الشرح .

* قمتُ كذلك بِتَشْكِيلِ الكَلِمَاتِ وَضَبْطِهَا ، حَتَّى يَتِمَّكَنَ القَارِئُ مِنْ قِرَاءَتِهَا بِشَكْلِ صَحِيحٍ .

* قَسَّمتُ الشَّرْحَ إِلَى فِقَرَاتٍ ، وَوَضَعْتُ لِكُلِّ فِقْرَةٍ عِنَوَانًا يُنَاسِبُهَا ؛ حَتَّى يَسْهُلَ عَلَى القَارِئِ فَهْمُ مَا ذُكِرَ فِي الشَّرْحِ مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَجَعَلْتُ هَذِهِ الْعِنَاوِينَ بَيْنَ مَعْكَوفَتَيْنِ [...] ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى أَصْلِ الشَّرْحِ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ .

* عَلَّقْتُ عَلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الشَّرْحِ ؛ لِبَيَانِ مَعْنَى كَلِمَةٍ ، أَوْ لَتَوْثِيقِ عِبَارَةٍ ، أَوْ لِذِكْرِ فَائِدَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالْمَوْضُوعِ ، وَمَا شَابَهُ ، مَعَ الْحِرْصِ عَلَى عَدَمِ الْإِكْثَارِ مِنْهَا .
وَقَبْلَ أَنْ أُخْتِمَ أُحِبُّ أَنْ أَشْكُرَ الْقَائِمِينَ عَلَى مَوْعِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ رَسْلَانَ عَلَى مَا يَبْذُلُونَهُ مِنْ جُهِدٍ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الْقَائِمِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَجَزَاهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، وَكَذَلِكَ أَشْكُرُ كُلَّ مَنْ سَاعَدَنِي فِي هَذَا الْعَمَلِ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ جَمِيعَ أَعْمَالِنَا خَالِصَةً لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

قَيَّدَهُ بِقَلَمِهِ

رِضْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ آلِ إِسْمَاعِيلَ

عَجْمَان - إ. ع . م

* رَابِطُ مَوْعِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ رَسْلَانَ حِفْظُهُ اللَّهُ تَعَالَى :

www.rslan.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[خُطْبَةُ الْكِتَابِ]

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، أَمَّا بَعْدُ ..

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ، أَمَّا بَعْدُ ..^(١)

[مَوْضُوعُ الرِّسَالَةِ ، وَأَهْمِيَّتُهَا]

فهذه رسالة القواعد الأربع ، وهي في مضمونها مُتعلِّقَةٌ بِتَصْحِيحِ الْإِعْتِقَادِ ، وَمَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ ، وَمَعْرِفَةِ الشَّرِكِ ، وَتُعَرِّفُ قِيَمَةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ بِمَعْرِفَةِ أَضْدَادِ مَا تَضَمَّنَتْهَا ،

(١) هذه الخُطْبَةُ رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٨٦٧) ، وَابْنُ مَاجَهٍ فِي سُنَنِهِ (٤٥) ، يُسَمِّيْهَا الْعُلَمَاءُ (خُطْبَةَ الْحَاجَةِ) ،

وَمِنْ السُّنَّةِ ابْتِدَاءُ الْخُطْبَةِ بِهَا ، سِوَاءَ كَانَتْ خُطْبَةً جُمُعَةً أَوْ عِيدًا أَوْ نِكَاحًا ، أَوْ دَرَسٍ أَوْ مُحَاضَرَةٍ ، انظر : السلسلة

الصحيحة (٢٨ / ١) .

تُعَرَفُ قِيمَتُهَا بِالْإِخْلَالِ بِمَعْرِفَتِهَا ، فَإِنَّ الْإِخْلَالَ بِمَعْرِفَتِهَا ، وَالْإِخْلَالَ بِتَحْرِيرِ ضَبْطِهَا ، يُؤَدِّي إِلَى خَلَلٍ عَظِيمٍ فِي مَعْرِفَةِ حَالِ الْمَوْحِدِينَ وَحَالِ الْمُشْرِكِينَ .

[مَعْنَى الْقَوَاعِدِ]

القَوَاعِدُ : جَمْعُ قَاعِدَةٍ ، وَهِيَ الْأَصْلُ الَّذِي يَتَفَرَّغُ عَنْهُ مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ أَوْ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ .

[أَهْمِيَّةُ مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ وَتَمْيِيزِهِ عَنِ الشُّرْكِ]

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَصِحَّ لَهُمْ مَنَهْجٌ فِي مَعْرِفَةِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَحَالِ الْمَوْحِدِينَ ، وَمَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ لِأَجْلِهِ ، وَمَعْرِفَةِ الشُّرْكِ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، مَعْرِفَةُ ذَلِكَ أَوْجَبُ مِنْ مَعْرِفَةِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ ، لِأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ ، وَالْعِبَادَاتُ إِذَا لَمْ تُبْنَ عَلَى الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَهِيَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ لِلَّهِ ، فَإِنَّهَا لَا تَصِحُّ .

[شَرْحُ مُقَدِّمَةِ الرِّسَالَةِ]

وَقَدْ بَدَأَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رِسَالَتَهُ بِالذُّعَاءِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ الْمُقْبِلِ عَلَى تَعَلُّمِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَبِالذُّعَاءِ لِلْقَارِئِ الْمُتَلَمِّسِ طَرِيقَ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : (أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ، وَإِذَا أذْنَبَ اسْتَغْفَرَ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ .

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ أَنْ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا

لَهُ الدِّينَ ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ ، كَالْحَدِثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ) .

قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَائِلًا اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّى طَالِبَ الْعِلْمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَبَدَأَ بِالدُّعَاءِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا تَوَلَّى الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَكْرُوهٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ ^(٢)

فَبَدَأَ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ ، وَثَنَى بِدُعَاءٍ آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ) ؛ لِأَنَّ مَنْ أَتَى بِهَا فَقَدْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْفَكُ عَنْ نِعْمَةٍ ، فَحَقُّهَا الشُّكْرُ ، أَوْ بَلِيَّةٍ فَحَقُّهَا الصَّبْرُ ، أَوْ ذَنْبٍ فَحَقُّهُ الِاسْتِغْفَارُ .

قَالَ الْمَصْنِفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : (اَعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ) ، وَ (اَعْلَمْ) كَلِمَةٌ يُؤْتَى بِهَا لِلْإِهْتِمَامِ وَالْحَثِّ عَلَى تَدَبُّرِ مَا بَعْدَهَا ، الْخِطَابُ بِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ ،

(١) سورة الذَّارِيَاتِ ، الْآيَةُ : (٥٦) .

(٢) سورة الْبَقَرَةِ ، الْآيَةُ : (٢٥٧) .

فِيُوتَىٰ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ (اعْلَمْ) مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ وَحَثِّ السَّامِعِ عَلَى أَنْ يُصْغِيَ لِمَا سَيُقَالُ .
(أُرْشَدَكَ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ) : وَهَذَا دُعَاءٌ مِنَ الْمَصْنُفِ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ يَدُلُّ عَلَى شَفَقَتِهِ
وَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ لِمَنْ قَرَأَ رِسَالَتَهُ أَوْ سَمِعَهَا ، وَهِيَ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ لَفْظًا (أُرْشَدَكَ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ)
إِنْشَائِيَّةٌ الْمَعْنَى ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الدُّعَاءُ لِلْمُتَعَلِّمِ بِالْإِهْتِدَاءِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ
جَمَعَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالتَّعْلِيمِ .

(اعْلَمْ أُرْشَدَكَ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ أَنْ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا
لَهُ الدِّينَ ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا) وَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ (وَبِذَلِكَ)
لِلْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) وَبِهَذَا الْمَذْكُورِ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ
النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لِهَذَا الْمَقْصِدِ الَّذِي ذَكَرَ ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

[مَعْنَى الْحَنِيفِيَّةِ]

و (الْحَنِيفِيَّةُ) : هِيَ الْمِلَّةُ الْمَائِلَةُ ، الْمِلَّةُ الْمَائِلَةُ عَنِ الشَّرِكِ ، الْمُبْنِيَّةُ عَلَى الْإِخْلَاصِ
وَحْدَهُ ، وَالْحَنِيفُ : الَّذِي أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَأَعْرَضَ عَمَّا سِوَاهُ ، وَأَخْلَصَ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ
طَائِعًا لِلَّهِ ، وَ الطَّاعَةُ : مُوَافَقَةُ الْمُرَادِ ، فِعْلًا لِلْمَأْمُورِ وَتَرْكًا لِلْمَحْظُورِ .

[التَّعْرِيفُ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

و (مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ) هِيَ (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) ، وَذَلِكَ بِاجْتِنَابِ
الشَّرِكِ وَبِالْبَرَاءَةِ مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَشْرِكِينَ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ
بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ وَأَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ ﴾ (٢) وهذه العبادة التي أمر الله بها ، هي التي لأجلها خلق الله الخلق ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) أَي : لِيُوحِّدُونِي ، أَي : لِيُفَرِّدُونِي بِالْعِبَادَةِ ، وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ التَّوْحِيدُ .

[تَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ ، وَشَرْطُ قَبُولِهَا]

(فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ) .

والعبادة : غاية الدُّل مع غَايَةِ الْحُبِّ (٤) و العبادة : ما أمر الله به شرعاً من غير أطرادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ ، لِأَنَّهَا تَوْقِيفِيَّةٌ لَا تَثْبُتُ بِالْعَقْلِ وَلَا تَثْبُتُ بِالْعُرْفِ ، من غير أطرادٍ عُرْفِيٍّ وَلَا اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ ، هي ما أمر الله به شرعاً .
والعبادة : اسمٌ جامعٌ لِكُلِّ ما يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ كَمَا عَرَّفَهَا بِذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ (٥) .

(١) سورة النحل ، الآية : (١٢٣) .

(٢) سورة الحج ، الآية : (٧٨) .

(٣) سورة الذَّارِيَات ، الآية : (٥٦) .

(٤) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْحِيدِ :

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ دُلِّهِ مَعَ حُبِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

(٥) بدأ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بهذا التعريفِ رسالته العظيمة (العبودية) ، وللشيخِ محمد سعيد رسلان حفظه الله

شرحٌ لهذه الرسالة في تسعة مجالس ، وهو مُتَوَفَّرٌ صَوْتِيًّا فِي مَوْقِعِ الشَّيْخِ .

والعبادة التي يقبلها الله تعالى هي ما توفّر فيها شرطان :

* الإخلاص لله ، حيث لا شرك فيها .

* والمتابعة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، حيث لا بدعة معها .

فإذا اختل الشرط الأول - وهو الإخلاص - فدخل الشرك العبادة ، كان من أتى بذلك غير عابد لله ، وإذا اختل شرط المتابعة ، صارت العبادة ابتداءً في دين الله ^(١) .

والذي ذكره الشيخ رحمه الله تعالى إنما هو للتقريب ، فإن الشيخ قد قال : (كما أن

الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت ،

كالحدث إذا دخل في الطهارة) وإنما ذكر ما ذكره هاهنا رحمه الله تعالى للتقريب ،

لأن شرط الإخلاص والتوحيد لقبول العبادة أعظم من شرط الطهارة لقبول الصلاة ،

فإن من صلى محدثاً متعمداً ففي تكفيره خلاف بين العلماء ، وأما من عبد الله مشركاً

به فلا خلاف فيه .

قال الشيخ رحمه الله تعالى وقد أتى بمثل حسي حتى يقرب المثل المعنوي : الشرك

يبطل العبادة كما أن الحدث يفسد الطهارة ، فأى عبادة خالطها شرك أو داخلها فإنها

باطلة ، كما أن الطهارة إذا خالطها أو باشرها الحدث فسدت ، فكذلك العبادة إذا

دخلها الشرك : (فإذا عرفت أن الله تعالى خلقك لعبادته ، فاعلم أن العبادة لا تسمى

عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل

(١) لما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، أخرجه

البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) ، وفي رواية لمسلم عنها كذلك : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

الشُّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ) .

[سَبِيلُ السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ] ^(١)

السَّعَادَةُ : هِيَ الشُّعُورُ بِالرِّضَا وَالْأَمْنِ ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَبْحَثُ عَنِ السَّعَادَةِ فِي الْمَالِ ، وَفِي الْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ ، وَفِي وَسَائِلِ التَّرْفِيهِ ، وَلَكِنَّ السَّعَادَةَ لَا تَتَحَقَّقُ بِمُجَرَّدِ حُصُولِ ذَلِكَ ، فَالسَّعَادَةُ الْحَقَّةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِثَلَاثِ خِصَالٍ ، يَجْمَعُهَا الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ ، يَجْمَعُهَا التَّوْحِيدُ وَالتَّابِعَةُ ، فَالسَّعَادَةُ الْحَقَّةُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ ، وَبِمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْخِصَالُ الثَّلَاثُ هِيَ :

✽ الْأُولَى : الْاعْتِرَافُ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ .

✽ وَالثَّانِيَّةُ : إِيْمَانُ الْعَبْدِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، مَعَ التَّسْلِيمِ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَلِحِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَى مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَقَادِيرِ الْمُؤَلِمَةِ .

✽ وَالثَّلَاثَةُ مِنَ الْخِصَالِ : الرَّجُوعُ الدَّائِمُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، خَاصَّةً عِنْدَ ارْتِكَابِ الذَّنْبِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ - وَهَذَا مِنْ كَلَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : (وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ) فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَحَصَّلَ الْعَبْدُ عَلَى السَّعَادَةِ إِلَّا بِالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلَائِهِ ، وَالِاسْتِغْفَارِ إِذَا وَقَعَ فِي الذَّنْبِ .

(١) فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ رَجَعَ الشَّيْخُ حَفْظُهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَقْدَمَةِ الْأُولَى فِي الْمَتْنِ ، وَهِيَ الدُّعَاءُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَبَيَانُ سَبِيلِ السَّعَادَةِ الْحَقَّةِ لِيَرْبُطَ بَيْنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ وَبَيْنَ التَّزَامِ الْحَنِيفِيِّ وَهِيَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَبِذَلِكَ تَحْصُلُ السَّعَادَةُ الْحَقَّةُ .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاء بالحنيفية السمحة ، وهي إخلاص العباد لله ، وبذلك عينه جاء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبذلك تحصل السعادة البشرية ، فلا يمكن أن يتحصل البشر على السعادة إلا إذا أخذوا بالحنيفية السمحة ، وهي إخلاص العباد لله جلّ وعلا ، والعبادة لا تكون صحيحة إلا بالتوحيد ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١) فلا تصح العباد إلا بتوحيد الله جلّ وعلا .

[أَهْمِيَّةُ مَعْرِفَةِ الشَّرِكِ الْمُنَافِي لِلتَّوْحِيدِ]

قال الشيخ رحمه الله تعالى : (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشَّرِكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ ، وَهِيَ الشَّرِكُ بِاللَّهِ ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾) ^(٢) .

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى نتيجة ما ذكر قبل (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشَّرِكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ وَصَارَ) الْمُشْرِكُ (مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ) إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ (عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ) .

فإذا عرفت أن التوحيد لله إفراد الله بالعبادة ، فقد وجب أن تعرف ما هو الشرك ؛ وذلك لكي لا تقع فيه ، لأن الله حذر من الشرك فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(١) سورة الزمر ، الآية : (١١) .

(٢) سورة النساء ، في موضعين ، الأول : (٤٨) ، والثاني : (١١٦) .

يُشْرِكُ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ وكما أَنَّ أعظمَ ما أمرَ اللهُ بهِ التَّوْحِيدُ ، فأعظمُ ما نهى اللهُ عنه الشُّرْكُ ، وهذا الخطرُ العظيمُ تحرُّمُ بهِ الجنَّةُ ﴿٢﴾ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴿٣﴾ ؛ لِأَنَّهُ تَحَرَّمَ بِالشُّرْكِ الْمَغْفِرَةُ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴿٥﴾ فَيَجِبُ إِذْنُ أَنْ تَعْرِفَ هَذَا الْخَطَرَ الْعَظِيمَ لِتَجْتَنِبَهُ وَأَنْ تَعْرِفَ هَذَا الشُّرْكَ وَتِلْكَ الشَّبَكَةُ لِتَتَوَقَّى كُلَّ مَا يُقَرِّبُكَ إِلَيْهَا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُورِطَكَ فِيهَا ، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ .

القاعدة الأولى :

قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : (أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمَدْبُرُ وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُوهُ ﴾ (١) .

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ يعني : الذي يَفْعَلُ هذه الأمورَ هو اللهُ وَحْدَهُ ، فَهَمْ مُقَرَّنُونَ بِذَلِكَ ، بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الذي يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الذي يَمْلِكُ السَّمْعَ

(١) سورة المائدة ، الآية (٧٢) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٣١) .

والأَبْصَارَ وَهُوَ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ
الْأَمْرَ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يَفْعَلُ هَذَا كُلَّهُ ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنَاقِشُ﴾ يَعْنِي : أَتَقُولُونَ ذَلِكَ
وَتَقْرُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا تُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ ؟!
وَتُشْرِكُونَ بِهِ ؟! فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ .

[الإِقْرَارُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَكْفِي لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ]

فَلَيْسَ التَّوْحِيدُ الْإِقْرَارُ لِلَّهِ بِالْخَلْقِ وَالْمَلِكِ وَالتَّدْبِيرِ مَعَ صَرْفِ الْعِبَادَةِ لغيرِهِ ، لَيْسَ
هَذَا بِتَوْحِيدٍ ، فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ أَقْرَأُوا اللَّهَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ إِفْرَادُهُ سُبْحَانَهُ بِالْخَلْقِ
وَالْمَلِكِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ عَبَدُوا غَيْرَهُ فَكَانُوا مُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ إِقْرَارُهُمْ ذَلِكَ
فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ .

فهذه القاعدةُ تُبَيِّنُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالَ الْمُشْرِكِينَ ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا وَقَبْلَهُمْ
يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الشِّرْكَ هُوَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ أَحَدًا يَخْلُقُ مَعَ اللَّهِ أَوْ يَرْزُقُ مَعَ اللَّهِ ، هَذَا هُوَ
الشِّرْكَ عِنْدَهُمْ ، عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا وَقَبْلَهُمْ ، يَقْصُرُونَ الشِّرْكَ عَلَى ذَلِكَ ، أَنَّ
تَعْتَقِدَ أَنَّ أَحَدًا يَخْلُقُ مَعَ اللَّهِ أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَرْزُقُ مَعَ اللَّهِ ، يَقْصُرُونَ الشِّرْكَ عَلَى ذَلِكَ ،
مَعَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِأَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) أَيُ : وَمَا يُؤْمِنُ

أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِيمَانٌ رُبُوبِيَّةٌ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَهُوَ الْمَالِكُ وَهُوَ الْمُدَبِّرُ وَيَصْرِفُونَ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِهِ .

التَّوْحِيدُ هُوَ طَرِيقُ النَّجَاةِ ، فَإِنَّ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُوَحِّدًا نَجَا وَأَفْلَحَ ، وَالشِّرْكُ طَرِيقُ الْهَلَاكِ ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُشْرِكًا فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ .

الشِّرْكُ نَجَاسَةٌ ، إِذَا دَخَلَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَخْبَطَ ثَوَابَهَا ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَ نَفْسَهُ مِنَ التَّلَوُّثِ بِالشِّرْكِ ، إِذْ هُوَ نَجَاسَةٌ .

الَّذِي يُقَرُّ بِوُجُودِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي يُدَبِّرُ أُمُورَ النَّاسِ وَيَصْرِفُ شُؤُونَ الْكَوْنِ ، إِقْرَارُهُ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ بِهَذَا الْإِقْرَارِ وَحْدَهُ مُسْلِمًا ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ حَتَّى يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

[خطأ المتكلمين في تعريف الإله]

الْمُتَكَلِّمُونَ عَرَّفُوا الْإِلَهَ بِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ ، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، هَذَا الَّذِي قَرَّرُوهُ فَشَاعَ وَذَاعَ ، وَصَارَ مُقَرَّرًا فِي مَعَاهِدِ الْعِلْمِ وَفِي مَدَارِسِهِ ، وَتَرَبَّتْ عَلَيْهِ الْأَجْيَالُ ، هَذَا الَّذِي قَرَّرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَعْظَمُ غَلْطٍ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّهُ تَرَسَّخَ أَنَّ الَّذِي يُقَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَلَوْ صَرَفَ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِهِ تَعَالَى تَرَسَّخَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ مَا دَامَ قَدْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ ، وَإِنْ فَعَلَ فِي الْعِبَادَةِ مَا فَعَلَ صَرَفًا لِلْعِبَادَةِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ^(١) .

(١) وَلِذَلِكَ ظَهَرَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكْفُرْ ، وَالذَّلِيلُ : أَنَّهُ يَقُولُ : ﴿ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ ﴾ فَهُوَ مُؤْمِنٌ يُقَرُّ

بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهَذَا الْقَائِلُ إِمَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ ، أَوْ قَرَأَهُ وَلَمْ يَفْهَمْ مَا يَقْرَأُ ، أَوْ أَنَّهُ يُعَارِضُ الْقُرْآنَ

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وَلَوْ أَنَّ هَذَا الْمُسْكِينَ عَرَفَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ وَفَهِمَهَا =

[خطأ المتكلمين في تفسير كلمة التوحيد]

وكذلك وقع الخطأ العظيم والغلط الكبير في تفسيرهم لكلمة التوحيد ، فإنهم فسروا كلمة التوحيد بأنه لا إله مَوْجُودٌ إِلَّا اللهُ ، والعبادة راجعة إلى معنى الألوهية ، فلا إله حقٌ إِلَّا اللهُ ، و لا مَعْبُودٌ بِحَقِّ إِلَّا اللهُ ، فهذه هي القاعدة الأولى . وأمّا :

القاعدة الثانية

فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ رحمه الله تعالى : (الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝﴾ ^(١) وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۝﴾ ^(٢) .

[مقصود المشرّكين من إشراكهم في الألوهية]

وهذه القاعدة هي في بيان حال المشرّكين في عبادتهم ، وفي الذي يقصدونه

= لما وقع في هذا الزلزال الخطير ، نسأل الله السلامة والعافية ، وبمثل هذا تتبين لك أهمية هذه القواعد الأربع والله أعلم .

(١) سورة الزمر ، الآية : (٣) .

(٢) سورة يونس ، الآية : (١٨) .

بِعِبَادَتِهِمْ ، فَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ اللَّهُ مُشْرِكِينَ ، وَحَكَّمَ عَلَيْهِم بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ ، لَمْ يُشْرِكُوا فِي الرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا أَشْرَكُوا فِي الْأُلُوهِيَّةِ ، وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا أَبَدًا إِنَّ آلِهَتَهُمْ آلَهُةٌ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِقْلَالِ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : هِيَ وَسَائِطُ نَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ ، وَتَتَوَسَّطُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ عَلَى جِهَةِ الْقُرْبَةِ ، أَوْ عَلَى جِهَةِ الشَّفَاعَةِ ، وَ (يَقُولُونَ مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لِيُطَلَّبَ الْقُرْبَةُ وَالشَّفَاعَةُ) فَيَقُولُونَ إِنَّ آلِهَتَهُمْ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، أَوْ تَرْفَعُ حَوَائِجَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَلَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللَّهِ ، وَلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ وَهُوَ الرَّزَّاقُ ، وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لِلْأَمْرِ ، وَلَمْ يَقُولُوا إِنَّ آلِهَتَهُمْ آلَهُةٌ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِقْلَالِ تَصْنَعُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : هِيَ وَسَائِطُ نَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ ، وَتَتَوَسَّطُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الَّذِي قَالُوهُ وَأَشْرَكُوا بِهِ وَصَنَعُوهُ .

[مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْبَةِ]

فَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْبَةِ : فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَيُ : آلِهَةً ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ وَهَذَا حَصْرٌ إِضَافِيٌّ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ يَعْنِي : مَا نَعْبُدُهُمْ لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ ، إِلَّا لِأَجْلِ التَّقْرِيبِ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ فَهَذَا حَصْرٌ إِضَافِيٌّ ، يَعْنِي : مَا نَعْبُدُهُمْ لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ ، إِلَّا لِأَجْلِ التَّقْرِيبِ ، فَحَصَرُوا مَا أَرَادُوا فِي الْقُرْبَى وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ، فَهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ مَا عِنْدَ اللَّهِ ، إِذَنْ هُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ عَبْدُوهُمْ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ،

فَمَا أَرَادُوا إِلَّا اللَّهَ ، وَلَكِنَّهُمْ اتَّخَذُوا تِلْكَ الْوَسَائِطَ لِتُقَرَّبَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿ ^(١) فهذا دليلُ القُرْبَةِ ، لَأَنَّهُمْ قَالُوا : (مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ) .

[مَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّفَاعَةِ]

(وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢)) .

وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ وَسَائِطَهُمْ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلِلْوَسَاطَةِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْتَ خَيْرٌ بِأَنَّ الْقَبْرِيَّ الَّذِي يَعْبُدُ الضَّرِيحَ يَقُولُ : هَذَا الْوَلِيُّ أَوْ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، هُوَ يَقْرَأُ بِهَذَا وَيَقُولُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّ الْوَلِيَّ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، يَقُولُ : وَلَكِنْ أُرِيدُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى اللَّهِ قُرْبَى وَإِنَّمَا أَتَزَلَّفُ بِذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ، يَعْنِي بِعِبَادَةِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، فَأَيُّ فَرْقٍ ؟ وَهَلْ يُوجَدُ عَاقِلٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَجِدَ فَرْقًا بَيْنَ هَذَا الَّذِي هُوَ مُحَدَّثٌ وَبَيْنَ الَّذِي كَانَ ؟ أَيْ فَرْقٍ ؟

إِنَّ السَّابِقِينَ كَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّ وَسَائِطَهُمْ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ هُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيُقَرُّونَ بِهِ ، وَيَقُولُونَ مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ ﴿ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فَإِذَنْ ؛ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ

(١) سورة الزمر ، الآية : (٣) .

(٢) سورة يونس ، الآية : (١٨) .

لَا يَضُرُّونَ وَلَا يَنْفَعُونَ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوهُمْ لِأَجْلِ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ ،
وَمَنْ أَجْلِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَيْضًا الَّذِي يَتَوَجَّهُ إِلَى الْوَلِيِّ يَسْأَلُهُ مَا لَا يُسْأَلُهُ إِلَّا اللَّهُ
يَقُولُ الْقَوْلَ عَيْنَهُ ، فَيَقُولُ : أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ وَهُوَ
قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، فَأَنَا أَتَّخِذُهُ وَاسِطَةً بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ ، لِيَشْفَعَ لِي عِنْدَ اللَّهِ .

الشَّفَاعَةُ هِيَ : التَّوَسُّطُ لِغَيْرِكَ بِجَلْبِ مَنفَعَةٍ لَهُ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ عَنْهُ ، فَهِيَ :
طَلَبُ الْخَيْرِ لِلغَيْرِ .

كَانَ غَالِبُ الْجَاهِلِيِّينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَتَوَسَّطُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَهُمْ يَعْبُدُونَهَا
مِنْ أَجْلِ أَنْ تَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهَذَا اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ ، وَلَمْ يَأْمُرْ
بِهِ نَبِيُّ مِنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا .

[أَنْوَاعُ الشَّفَاعَةِ]

ثُمَّ اسْتَطَرَدَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِذِكْرِ الشَّفَاعَةِ ، فَذَكَرَ نَوْعَيْهَا ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :
(وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ : شَفَاعَةُ مَنْفِيَّةٌ وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٌ ، فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ : مَا كَانَتْ
تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) وَالشَّفَاعَةُ الْمُثَبَّتَةُ : هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ . وَالشَّافِعُ مُكْرَّمٌ
بِالشَّفَاعَةِ ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ : مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٤) .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (١) .

فالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ :

* مَنْفِيَّةٌ : وَهِيَ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ ، وَهِيَ الَّتِي تُطْلَبُ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ ، أَوْ تُطْلَبُ لِمَشْرِكٍ .

* وَالشَّفَاعَةُ الْمُثَبَّتَةُ : وَهِيَ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْقُرْآنُ ، هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ بِإِذْنِ اللَّهِ لِأَهْلِ

التَّوْحِيدِ .

[مَعْنَى الشَّفَاعَةِ]

وَالشَّفَاعَةُ فِي اللُّغَةِ : جَعَلَ الْوَثْرَ شَفْعًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ (٢) .

وَالشَّفَاعَةُ فِي الْإِصْطِلَاحِ : هِيَ التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ ، فَهِيَ

طَلَبُ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ .

[شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ الْمُثَبَّتَةِ ، وَدَلِيلُهَا]

وَشُرُوطُ الشَّفَاعَةِ ثَلَاثَةٌ :

* إِذْنُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا .

* وَرِضَاهُ عَنِ الشَّافِعِ .

* وَرِضَاهُ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ .

فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ ، وَقَدْ جَمَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

(٢) سورة الفجر ، الآية : (٣) .

وَرَضَى ﴿١﴾ ؛ فقوله تعالى : ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ هذا إِذْنُهُ تعالى بِالشَّفَاعَةِ ، وقوله سبحانه : ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ هو رِضاهُ عَنِ الشَّافِعِ والمشفوعِ لَهُ ، لِأَنَّ حَذْفَ المعمولِ يدلُّ عَلَى العُمومِ ، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ ، فَجَمَعَتِ الآيَةُ شُرُوطَ الشَّفَاعَةِ الثَّلَاثَةَ : وَهِيَ إِذْنُ اللَّهِ تعالى بِالشَّفَاعَةِ ، وَرِضَى رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتعالى عَنِ الشَّافِعِ وَرِضَى رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتعالى عَنِ المَشْفُوعِ لَهُ ، وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي تَوْفَّرَتْ فِيهَا هَذِهِ الشُّرُوطُ هِيَ المَثْبُتَةُ الصَّحِيحَةُ ، فَالشَّفَاعَةُ لَهَا شُرُوطٌ وَلَيْسَتْ مُطْلَقَةً .

[الشَّفَاعَةُ المَنْفِيَّةُ]

الشَّفَاعَةُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ مَنْفِيَّةٌ ، وَلَا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ . وَأَفْضَلُ الخَلْقِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَشْفَعَ لِأَهْلِ المَوْقِفِ خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ يَدْعُوهُ وَيُحَمِّدُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَيُمَجِّدُهُ ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ : " اِرْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمِعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ " كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا ^(٢) فَلَا شَفَاعَةَ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللَّهِ تعالى .

الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ يَجِبُ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُ مُبَاشَرَةً ، بِأَنْ يَقُولَ طَالِبُ الشَّفَاعَةِ مَثَلًا :
اللَّهُمَّ شَفِّعْ فِيَّ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

(١) سورة النجم ، الآية : (٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

ولا تَحَقِّقُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِشَرِطَيْنِ : رِضَاهُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ ، وَعَنِ الشَّافِعِ ، وَإِذْنُهُ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ .

طَلَبُ الشَّفَاعَةِ مِنَ الْأَوْثَانِ أَوْ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ، بِالِاتِّجَاهِ إِلَيْهِمْ بِالْدُّعَاءِ وَطَلَبِ الشَّفَاعَةِ بَاطِلٌ ، وَهُوَ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى .

فِي قَبُولِ الشَّفَاعَةِ : إِكْرَامٌ مِنَ اللَّهِ لِلشَّافِعِ ، وَإِظْهَارٌ لِفَضْلِهِ ، وَنَفْعٌ لِلْمَشْفُوعِ لَهُ .

[خُلاصَةٌ مَا فِي الْقَاعِدَةِ الثَّانِيَةِ]

فَالْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ - مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ - : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ وَحَكَّمَ عَلَيْهِم بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ كَانُوا يُقَرُّونَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ مَعَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ لِتُقَرَّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَلِتَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ إِقْرَارُهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْئًا ، مَعَ صَرْفِهِمْ مَا صَرَفُوهُ مِنَ الْعِبَادَةِ لغيرِ اللَّهِ .

فَفِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ شُبْهَةٌ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ ذَكَرُوها - أَيِ : تِلْكَ الشُّبْهَةِ - فِي عَهْدِ النَّبُوَّةِ ، وَوَرِثَهَا مَنْ خَلَفَهُمْ : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ؛ مَا عَبْدَنَاهُمْ إِلَّا لِيَكُونُوا وَسَطَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّنَا يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَهُ ، وَهَذِهِ شُبْهَةُ الْكُفَّارِ فِي عَهْدِ النَّبُوَّةِ ، وَقَدْ وَرِثَهَا مَنْ خَلَفَهُمْ .

وَفِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ بَيَانٌ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى الْوَسَائِطِ الْمُحَرَّمَةِ لِحُلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ بِنَصِّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَلْ يَتَوَجَّهُ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ .

القاعدة الثالثة

من القواعد الأربع :

(أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ عَلَى أَنَسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ : مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

[مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ]

(وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ (٢) .

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ نَهَى الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا ، الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُخَالَفَهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُوَحِّدُونَ ، وَالصَّلَاةُ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِيهَا مُشَابَهَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٣٩) .

(٢) سورة فصلت ، الآية : (٣٧) .

(٣) سورة فصلت ، تكملة الآية السابقة .

[وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ]

(ودليل الملائكة قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾) (١) ؛
فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ عَبَدَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ .

[الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ]

في القاعدة الثالثة معرفة حال العرب الذين بُعثَ فيهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأَحْجَارَ وَالْأَشْجَارَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ
الْأَوْلِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَمَنْ ظَنُّوا بِهِمُ الصَّلَاحَ .

وَأَهْلُ الشِّرْكِ أَهْوَاؤُهُمْ مُتَفَرِّقَةٌ ، لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ
فَرَّقَ بَيْنَهُمُ الْهَوَى ، فَعَبَدُوا مَا عَبَدُوا وَمَنْ عَبَدُوا ، وَتَكَاثَرَتْ اتِّجَاهَاتُهُمْ ، مَعَ كُلِّ ذَلِكَ
قَاتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْمَشْرِكِينَ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ ، قَاتَلَ الْوَثَنِيِّينَ ،
وَقَاتَلَ الْيَهُودَ ، وَقَاتَلَ النَّصَارَى ، وَقَاتَلَ الْمَجُوسَ وَقَاتَلَ جَمِيعَ الْمَشْرِكِينَ ، وَفِي هَذَا :
أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الَّذِي يَعْبُدُ الصَّنَمَ وَالَّذِي يَعْبُدُ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ يَعْبُدُ مَلَكًا مِنْ
الْمَلَائِكَةِ ؛ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ عَبَدُوا
الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَارَبَهُمْ ، وَالَّذِينَ عَبَدُوا عُزَيْرًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حَارَبَهُمْ ، وَالَّذِينَ
عَبَدُوا الْأَحْجَارَ وَالْأَشْجَارَ حَارَبَهُمْ ، بِلَا تَفْرِيقٍ ، فَالشِّرْكُ لَا تَفْرِيقَ فِيهِ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٨٠) .

رُجُلًا صَالِحًا وَمَنْ يَعْبُدُ صَنْمًا ، أَوْ يَعْبُدُ شَجَرًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ^(١) ، و﴿شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَهِيَ مُفِيدَةٌ لِلْعُمُومِ .
وَالدَّلِيلُ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَهُمْ عَلَى حَسَبِ مَعْبُودَاتِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ^(٢) ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَهُمْ عَلَى حَسَبِ
مَعْبُودَاتِهِمْ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ عَامٌّ لِكُلِّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَسْتَثْنِ رَبُّنَا أَحَدًا
﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الْفِتْنَةُ : الشَّرْكُ ، أَيُّ : حَتَّى لَا يُوجَدَ شِرْكٌ بَيْنَهُمْ ،
فَإِنَّهُ يَقْصِدُ أَيُّ شِرْكٍ ، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ أَيُّ شِرْكٍ ،
﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ وَتَكُونَ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ .

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الثَّلَاثَةُ فِيهَا : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِيهَا : أَنَّ
الْكُفْرَ مُتَنَوِّعٌ الْآلِهَةِ ، فَمِنْهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَنَحْوِ
ذَلِكَ ، وَالْعَابِدُونَ لِهَذِهِ الْآلِهَةِ أَوْ بَعْضِهَا كُفَّارٌ ، فَالْكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهَذَا لَمْ يُفَرِّقِ
الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَتِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ فِي جِهَادِهِ .

[وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ]

(وَدَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

(١) سورة النساء ، الآية : (٣٦) .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : (٣٩) .

وَأَمَّا إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ
قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١﴾ .

في الآية بيان أن الأنبياء والصالحين لا يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم ، ولا إلى
الغلو فيهم ، ولا إلى طلب قضاء الحاجات منهم ، حاشاهم ، وكلُّ صالح عبد من
دُونِ الله فإنه يتبرأ من أولئك العابدين ، ولا يعترف بعبادتهم ، ولا يلحقه شيء من
المآثم التي اقترفوها ، فالآية دليل على أن عبادة الأنبياء شرك ، وفيها ردُّ على من فرق
في ذلك بين المعبودات ، وفيها ردُّ على من زعم أن الشرك مقصور على عبادة الأصنام
فقط ، فإن من الشرك عبادة الأنبياء وعبادة الصالحين ، وقد دلت الآية على أن عبادة
الأنبياء شرك ، وفيها ردُّ على من زعم أن الشرك مقصور على عبادة الأصنام فقط ،
وكثير من المسلمين يقولون أنه مضى الزمان الذي تُعبد فيه الأصنام ، وما علموا أن
الشرك له ضروب وألوان .

[وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الصَّالِحِينَ]

(ودليل الصالحين قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾) (١) ، الوسيلة هنا في قوله

تعالى : ﴿ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ هي الطاعة والقربة .

(١) سورة المائدة ، الآية : (١١٦) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٥٧) .

[معنَى الْوَسِيلَةِ ، وما يُشْرَعُ مِنْهَا]

وَالْوَسِيلَةُ فِي اللُّغَةِ : الشَّيْءُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ ، فَالَّذِي يُوصَلُ إِلَى رِضَى اللَّهِ وَجَنَّتِهِ هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ ، وَهَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْمَشْرُوعَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ^(١) .

[الْوَسِيلَةُ الْمَمْنُوعَةُ]

التَّوَسَّلَ بِالْمَخْلُوقِينَ وَسِيلَةً مَمْنُوعَةً شَرَكِيَّةً ، وَمِنَ الشَّرْكِ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَسَائِطَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَمْوَاتِ ، وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمُ الْمُشْرِكُونَ هُمْ عَابِدُونَ لِلَّهِ ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، كَالْمَسِيحِ وَأُمِّهِ وَعُزَيْرٍ ، هُمْ عِبَادٌ مُتَحَاجُونَ إِلَى اللَّهِ ، مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ ، يَدْعُونَهُ وَيَتَوَسَّلُونَ بِالطَّاعَاتِ إِلَيْهِ ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَإِنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى هُمْ أَنْفُسُهُمْ عَابِدُونَ لِلَّهِ ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ ^(٢) .

كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَصَارُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ ، وَيُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ ، وَبَقِيَ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ مِنَ الْإِنْسِ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ ، فَصَارَ

(١) سورة المائدة ، الآية : (٣٥) .

(٢) هذا هو أحد قولَي المفسرين في مَنْ نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ ، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ وَعُزَيْرًا ، انْظُرْ : =

المعبودون عابدين لله تبارك وتعالى ، وبقي من كانوا على عبادتهم على عبادتهم قائمين^(١) .

الآية تدل على أنه لا يجوز أن تُصرف العبادة للصالحين ، سواء كانوا من الأنبياء والصديقين ، أو من غيرهم من الأولياء والصالحين ، لأنَّ الكلَّ مُفْتَقِرٌ إلى الله عبادُ الله . في الآية : دليل على أن هناك من يعبد الصالحين .

[ومنهم من كان يعبد الأشجار والأحجار]

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى (دليل الأشجار والأحجار) وهو (قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴾)^(٢) .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ﴾ : استفهام إنكارٍ للتوبيخ ، **﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴾** فذكر :

* اللات - بالتخفيف - : صنم في الطائف ، عبارة عن صخرة منقوشة ، عليها بيت مبني وعليه ستائر يضاؤون به الكعبة ، وعنده سدنة .

وقرئت **﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾** - بالتشديد -^(٣) : هو اسم فاعلٍ من لَتَّ يَلُتُّ ،

= شرح الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى على متن القواعد الأربع (ص : ٣٤٩) من سلسلة شرح الرسائل .

(١) هذا هو القول الثاني في الآية ، انظر : المصدر السابق .

(٢) سورة النجم ، الآيتان : (١٩-٢٠) .

(٣) هي قراءة يعقوب الحضرمي برواية رؤيس عنه ، انظر : الميسر في القراءات الأربعة عشر للشيخ محمد فهد

خروف بمراجعة الشيخ كريمة راجح ، انظر : (ص : ٥٢٦) .

وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ كَانَ يَلُتُ السَّوِيقَ ^(١) لِلْحُجَّاجِ ، فَلَمَّا مَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ بَيْتًا
وَأَرْخَوْا عَلَيْهِ السَّتَائِرَ ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى .

* وَالْعُزَّى : شَجَرَاتٌ مِنَ السَّلَمِ فِي وَادِي نَخْلَةٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، حَوْلَهَا بِنَاءٌ
وَسَتَائِرٌ ، وَعِنْدَهَا سَدَنَةٌ ، وَفِيهَا شَيَاطِينٌ يُكَلِّمُونَ النَّاسَ مِنْ دَاخِلِهَا ^(٢) .

* وَأَمَّا مَنَاةُ : فَهِيَ صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي مَكَانٍ يَقَعُ قَرِيبًا مِنْ جَبَلٍ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ،
وَكَانَتْ لِحُزَاعَةَ وَالْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ .

هَذِهِ الْأَصْنَامُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ أَكْبَرُ أَصْنَامِ الْعَرَبِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ
وَالْعُزَّىٰ ^(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ هَلْ أَغْنَتْ عَنْكُمْ شَيْئًا ؟ هَلْ نَفَعَتْكُمْ أَوْ نَصَرَتْكُمْ
أَوْ دَفَعَتْ عَنْكُمْ ؟ ^(٣)

(١) قَالَ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : (السَّوِيقُ : مَا يُتَّخَذُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، يَكُونُ طَعَامًا وَيَكُونُ ثَرِيدًا ،
وَيُجْعَلُ شَرَابًا ... سُمِّيَ بِذَلِكَ لِانْسِيَاقِهِ فِي الْحَلْقِ ، وَأُظُنُّ أَنَّهُ (الْقَمَحِيَّةُ) الْمَعْرُوفَةُ الْيَوْمَ فِي شِمَالِ سُورِيَّةَ) اهـ ، انظر :
مُعْجَمُ مُحَمَّدٍ شَاكِرٍ (ص : ١٦٥) .

(٢) قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ الْفَوْزَانِ حَفْظُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرْحِهِ (ص : ٣٥٤) : (وَيُظَنُّ الْجَهْلُ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُكَلِّمُهُمْ هُوَ نَفْسُ
هَذِهِ الشَّجَرَاتِ أَوْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي بَنَوْهُ ، مَعَ أَنَّ الَّذِي تُكَلِّمُهُمْ هِيَ الشَّيَاطِينُ لِتُضِلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) اهـ .

(٣) قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ الْفَوْزَانِ حَفْظُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرْحِهِ (ص : ٣٥٥) : (وَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَفَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ الْمُشْرَفَةَ ، أَرْسَلَ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَأَبَا سَفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى (السَّلَاتِ) فِي
الطَّائِفِ فَهَدَمَاهَا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وَأَرْسَلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى (الْعُزَّى)
فَهَدَمَهَا وَقَطَعَ الْأَشْجَارَ وَقَتَلَ الْجِنِّيَّةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا تُخَاطَبُ النَّاسُ وَتُضِلُّهُمْ وَتَحَاوِي عَنْ آخِرِهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَأَرْسَلَ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى (مَنَاةَ) فَهَدَمَهَا وَتَحَاوَاهَا ، وَمَا أَنْقَذَتْ نَفْسَهَا فَكَيْفَ تُنْقَذُ أَهْلُهَا وَعِبَادُهَا ؟ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ
اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ^(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ هَلْ نَفَعَتْكُمْ ؟ هَلْ مَنَعَتْ نَفْسَهَا مِنْ جُنُودِ اللَّهِ ؟) اهـ .

والآية مع أختها دليل على أن هناك من يعبد الأشجار والأحجار .

قال الشيخ رحمه الله تعالى : (وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين ، ونحن حداثاء عهد بكفر ، وللمشر-كين سدره يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، فمررنا بسدره فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ تجهلون ﴿^(١)﴾ " أخرجه أحمد والترمذي وابن أبي عاصم وابن حبان ، وقال الترمذي : (حديث حسن صحيح) وصححه ابن حجر في الإصابة ، وصححه الألباني^(٢) .

والأنواط : جمع نوط ، وهو التعليق ، أي : هي شجرة ذات تعاليق ، يعلقون بها أسلحتهم للتبرك بها ، قالوا : (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) وهذه بليّة التقليد والتشبه ، وهي من أعظم البلايا ، و " من تشبه بقوم فهو منهم " ^(٣) ، وقد تعجب النبي صلى الله عليه وسلم ، واستنكر ما قالوه ، وقال : " إنها السنن " أي :

(١) سورة الأعراف ، الآية : (١٣٨) .

(٢) الحديث عند أحمد (٢١٨/٥) ، والترمذي (٢١٨٠) ، وابن أبي عاصم (٧٦) ، وابن حبان (٦٧٠٢) ، وصححه ابن حجر في الإصابة (٢١٦/٤) ، والألباني في ظلال الجنة في تخريج كتاب السنة (ص : ٥٤) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) ، قال ابن حجر رحمه الله تعالى في بلوغ المرام : (صححه ابن حبان) اهـ ، وقال الصنعاني رحمه الله تعالى في السبل (٥١٤/٤) : (له شواهد عند جماعة من أئمة الحديث عن جماعة من الصحابة تُخرجُه عن الضعف) اهـ ؛ فالحديث حسن لغيره .

هِيَ السُّبُلَ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ ، وَيَقْتَدِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهَا ، وَقَدْ قَالَ مَنْ قَالَ كَمَا
 قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ ﴾ ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّونَ ۚ أَيُّ : مُهْلَكٌ ﴿ مَا هُمْ فِيهِ وَبِطُلٌّ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ شِرْكٌ ﴿ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فَالتَّبَرُّكُ بِالْأَشْجَارِ وَالْعُكُوفُ عِنْدَهَا شِرْكٌ ، وَالْعُكُوفُ : الْبَقَاءُ فِي
 الْمَكَانِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَنْتَبِهَ النَّاسُ إِلَى خَطَرِ الْجَهْلِ بِالتَّوْحِيدِ ، لِأَنَّ مَنْ جَهِلَهُ وَقَعَ فِي
 الشِّرْكِ لَا مُحَالَاةَ ، وَمَنْ جَهِلَهُ تَشَبَّهَ بِأَهْلِهِ لَا مُحَالَاةَ ، قَالَ أَبُو وَاقِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 (خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ ، وَنَحْنُ حُدْنَاءُ عَهْدٍ بِكَفْرِ) فَأَرَادُوا
 أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا الْحُكْمَ ، فَيَجِبُ أَنْ يَنْتَبِهَ النَّاسُ إِلَى خَطَرِ الْجَهْلِ
 بِالتَّوْحِيدِ ؛ لِأَنَّ مَنْ جَهِلَهُ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ لَا مُحَالَاةَ ، وَمَنْ جَهِلَ التَّوْحِيدَ وَجَهِلَ
 الشِّرْكَ تَشَبَّهَ بِأَهْلِهِ أَرَادَ أَمْ لَمْ يُرِدْ .

الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ لَا يُقَرِّونَ عِبَادَةَ النَّاسِ لَهُمْ ، بَلْ يَتَبَرَّوْنَ مِمَّنْ عَبَدُوهُمْ ، وَالَّذِينَ
 عَبَدُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمَّهُ ، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَهَا إِنَّمَا افْتَرَوْا ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَلَمْ
 يَأْمُرْهُمْ اللَّهُ بِذَلِكَ وَلَا بِهِ أَمَرَهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ مُحْتَاجُونَ
 إِلَى اللَّهِ ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَكَيْفَ يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُمْ عَابِدُوهُ ،
 وَالتَّبَرُّكُ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ وَقُبُورِ الصَّالِحِينَ شِرْكٌ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْغَفَّارِ ، وَالْبَرَكَةُ الَّتِي

يَعْتَقِدُهَا الْمُشْرِكُونَ فِي الْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْقُبُورِ وَالْمَنَامَاتِ مَا هِيَ إِلَّا أَوْهَامٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، فَهِيَ مُجَرَّدُ أَشْجَارٍ وَأَحْجَارٍ وَقُبُورٍ عَادِيَّةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ^(١) .

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

القاعدة الرابعة :

مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ ، وَهِيَ فِي بَيَانِ غِلْظِ شِرْكِ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

(الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ : أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًَا مِنَ الْأَوَّلِينَ ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شَرُّهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٢) .

[شِرْكُ الْمَتَأَخِّرِينَ أَغْلَظُ مِنْ شِرْكِ الْمُتَقَدِّمِينَ]

فَحَاصِلُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ : أَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي عَصْرِ الْمَصْنَفِ وَبَعْدَهُ أَغْلَظُ شِرْكًَا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الْأَوَّلِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ ، فَإِذَا وَقَعُوا فِي الشَّدَّةِ أَخْلَصُوا ، وَأَمَّا الْآخِرُونَ فَإِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَفِي الشَّدَّةِ ،

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : (٦٥) .

(١) سورة النجم ، الآية : (٢٣) .

لا يُفَرِّقُونَ ، قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْأَوَّلِينَ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَمَا تَجْعَلُونَ إِلَّا الْبَرَّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ^(١) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٢) ؛ فَلَا وُلُونَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ يَدْعُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ وَالْأَحْجَارَ ، وَيَعْبُدُونَهَا فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ ، وَإِذَا وَقَعُوا فِي الشَّدَّةِ لَا يَدْعُونَ صَنَمًا وَلَا حَجَرًا ، وَلَا مَخْلُوقًا وَلَا شَجَرًا ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَأَمَّا الْمَتَأَخِّرُونَ فَإِنَّهُمْ مُسْتَمِرُّ بِهِمْ شِرْكُهُمْ فِي حَالِ رَخَائِهِمْ وَفِي حَالِ شِدَّتِهِمْ ، فَإِذَا اشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ دَعَا عَبْدَ الْقَادِرِ وَالرَّفَاعِيِّ وَالْبَدَوِيِّ وَغَيْرَهُمْ .

[فَرَقَ آخَرُ بَيْنَ شَرِكِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَشَرِكِ الْمَتَأَخِّرِينَ] ^(٣)

وَهُنَا فَرَقُ آخَرٌ : الْأَوَّلُونَ كَانُوا يَعْبُدُونَ صَالِحِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَأَمَّا الْمَتَأَخِّرُونَ فَفِي جُمْلَةٍ مَنْ يَدْعُونَ وَيَعْبُدُونَ : أَنَاسٌ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ وَمِنْ أَكْفَرِ الْخَلْقِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَهُمْ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ مِنْ أَفْجَرِ الْخَلْقِ كَالْحَلَّاجِ وَابْنِ عَرَبِيٍّ وَابْنِ سَبْعِينَ وَالْبَدَوِيِّ وَغَيْرِهِمْ ^(٤) .

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٦٧) .

(٢) سورة لقمان ، الآية : (٣٢) .

(٣) ذَكَرَ هَذَا الْفَرْقَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ كَشْفُ الشُّبُهَاتِ فَقَالَ : (أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَعْبُدُونَ أَنَاسًا صَالِحِينَ ... أَمَّا هَؤُلَاءُ فَيَعْبُدُونَ أَنَاسًا مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ ، فَالَّذِينَ يُسَمُّونَهُمُ الْأَقْطَابَ وَالْأَغْوَاثَ لَا يُصَلُّونَ وَلَا يَصُومُونَ وَلَا يَتَنَزَّهُونَ عَنْ ... الْفَاحِشَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ بَرَعَمَهُمْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ تَكَالِيفٌ) اهـ .

(٤) قَالَ الشَّيْخُ بَكْرُ أَبُو زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ (الْعُزَابِ) : (الْبَدَوِيُّ : أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُسَيْنِيُّ الْبَدَوِيُّ الْمَصْرِيُّ ، الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٦٧٥ ، وَقَبْرُهُ وَثَنٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي طَنْطَا - نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْ عَلَيْنَا عَقْلَنَا =

وقد ساق الشيخ الدليل على هذه القاعدة وهي الآية الكريمة ، وهذه القاعدة كالنتيجة لما قبلها من القواعد .

وهذه القواعد الأربع من أنفع القواعد في باب العقيدة وبيان التوحيد ، وبيان ما كان عليه المشركون قديماً ، وما عليه أضرابهم حديثاً ؛ ﴿ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾^(١) ، والله المستعان .

ومما يدل على فساد عبادة تلك الآلهة : أن الذين يعبدونها يتركونها وقت الشدة ، ويلجؤون إلى الله وحده .

والذي يستمر على ضلاله حتى في حال الشدة أشد شركاً ممن يشرك في الرخاء دون الشدة ، ومنه تعلم غلظ شرك أهل هذا الزمان ، الذين يعبدون القبور في هذه الأزمنة يدعونها في الرخاء والشدة ، وهذا أشد شركاً ممن سبق .

[ثَمَرَةٌ تَعْلَمُ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ]

وبهذه القواعد تستطيع أن تميز حال الموحدين من حال المشركين ، وتستطيع أن تميز التوحيد من الشرك حتى لا يختلط عليك الأمر ، وتستطيع بهذه القواعد أن تعلم أن الإقرار بأن الله تعالى هو الخلاق وهو الرزاق وهو الذي يدبر الأمر مع صرف العبادة لغير الله تعالى - من هذا تعلم أن هذا الذي هو توحيد الربوبية مع الشرك في

= وثبت لنا ديننا ، ترجمه ابن العماد في الشذرات (٣٤٥/٥) ... وذكر في ترجمته من الحكايات ما يستحق من ذكره (اهـ .

انظر : مجموعة النظائر للشيخ بكر أبو زيد (ص : ٢٥٣) .

(١) سورة البقرة ، الآية : (١١٨) .

الألوهية - أن هذا لا يُسَمَّنُ ولا يُغْنِي من جُوع ، وأنه لا يُدْخِلُ الجنةَ ولا يُنْجِي من النار ، وتَعَلَّمُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَارَبَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى جَمِيعِ صُورِ عِبَادَتِهِمْ وَشُرَكَهُمْ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ فَحَارَبَهُمْ جَمِيعًا ، فَالشِّرْكُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ .

فإِذَنْ مَّا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعَبْدُ تَعَلُّمًا صَحِيحًا وَأَنْ يَبْدَأَ بِهِ ، لِأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَصِحُّ لِلْعَبْدِ عِبَادَةٌ إِلَّا بِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا تَصِحُّ لَهُ طَهَارَةٌ مَعَ الْحَدَثِ وَالْحَبَثِ ، فَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ لَهُ عِبَادَةٌ مَعَ الشَّرِكِ الدَّنَسِ ، فَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ دِينَهُ ، وَأَنْ يَعْرِفَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ وَأَنْ يَعْرِفَ الشَّرْكَ لِيَتَوَقَّاهُ حَتَّى لَا يُقَارِبَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهِ .

[خَاتِمَةُ الرِّسَالَةِ]

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ : (**تَمَّتْ** ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ **الْعَالَمِينَ**) . ^(١)

(١) كَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَفْرِيجِ هَذَا الشَّرْحِ وَمَرَاجَعَتِهِ وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ ٢٣ مُحَرَّمِ الْحَرَامِ سَنَةِ ١٤٣٠ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .